نظرات في المشروع الإصلاحي للشيخ ابن باديس

في حوار مع الدكتور عمار الطالبي*

الحياة الطيبة: ما هي أهم الخطوط الكبيرة- في نظركم- التي شكلت الأعمدة الأساسية لمشروع ابن باديس الإصلاحي والفكري كما تجسدت في مساره العملي؟

بداية، **ابن باديس** رجل حركي، كان يخاطب كل شرائح المجتمع: النخب السياسية والطبقة الوسطى والجمهور، كما يخاطب الشباب؛ حيث كان ينظم لهم دروسا في محو الأمية بعد خروجه من العمل. ويعتبر أول من نادى بتعليم المرأة/ البنت، وجعل لها مدرسة؛ مدرسة «التربية والتعليم». ويرى أننا ما لم نعلم المرأة فسنبقى في نقص تربوي شديد؛ لأن المرأة هي التي تربي الناشئة.. وما لم تكن متعلمة فلا تستطيع تكوين الرجال الذين نحتاجهم في حياتنا.

وقد عني **ابن باديس** كذلك بالتراث وعمل على إحيائه من جديد، وساهم كذلك في إحياء اللغة العربية كما اهتم بدراسة القرآن، ومقاربة العقائد بطريقة جديدة، فلا يأتي بالأنظار الخلافية والمعقدة، والأساليب التي تنفر الطالب، بل يعتمد على نصوص جليّة وأحاديث في غاية الوضوح. وبالتالي نستطيع أن نقول بأن **ابن باديس** كان مجددا في ميادين كثيرة، فكتابته في العقائد كما ذكرنا، انتهجت طريقة جديدة غير مسبوقة، وعندي طبعة أخرى من هذا الكتاب أفضل من تلك الموجودة في المكاتب، وهي طبعة

* أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي- جامعة الجزائر
رئيس جامعة الأمير عبد القادر سابقاً.

قدمتها للنشر لكن هناك من ضيعها. وهي «عقيدة» تصلح للأطفال؛ لأنها كتبت بطريقة شيقة، وبأسلوب سهل. ولم يسلك **ابن باديس** هذا النهج فقط على مستوى العقائد إنما ينسحب هذا الأمر كذلك على الفقه والحديث... وكل ميدان من الميادين التي كان يدرسها.

وكان يهتم باللسان العربي على وجه الخصوص، ويعمّق هذا التذوق في نفوس طلبته في سبيل تكوين ذوق عربي سليم لدى الطالب من أجل أن يفهم آيات القرآن كما نصوص السنة. بل كان يدرس لهم علم أصول الحديث كي يتمكنوا من التمييز في الأحاديث – بمنهج نقدي تاريخي– بين ما هو سقيم وبين ما هو صحيح؛ باعتبار أن السنة قد دخلتها عناصر غريبة وضعيفة. كما قام– أيضاً– بشرح «موطأ» الإمام مالك كاملاً، وبعد إتمام الشرح أقام **ابن باديس** حفلة بمناسبة ذلك ليمكّن الشعب من مشاركته في ذلك الحدث. وعندما كان يأتي المشاركون إلى هذا الاحتفال كانوا لا يذهبون إلى الفنادق أو إلى أماكن أخرى، إنما يوزعون على الأسر وقد كان أهل قسنطينة يتنافسون على استضافة الضيوف.

وأهم إنجاز قام به **ابن باديس** هو تأسيسه سنة ١٩٣١ لجمعية علماء المسلمين بمناسبة مرور ١٠٠ سنة على احتلال الجزائر الذي كان سنة ١٨٣٠. وكان هذا التأسيس ردة فعل على الاحتلال. وكتب منشورا في تلمسان يدعو فيه أهل بلدته إلى مقاطعة الاحتفال بذكرى احتلال قسنطينة، وقال لهم: لا تشاركوا في هذا الاحتفال لأنه يثير الجروح. وقد ضمّنت هذا المنشور في كتابي: «**ابن باديس وآثاره**».

الحياة الطيبة: ذكرتم شخصية ابن باديس اتّسمت بالحركية، الأمر الذي يقتضي أن يكون له تواصل مستمر مع الجمهور.. في هذا الصدد ما هي أبرز الوسائل التي اعتمدها في تحقيق هذا التواصل ونشر أفكاره؟

من أبرز المجالات التي اهتم بها **ابن باديس** مجال الصحافة، حيث اعتبرها من أهم الوسائل للوصول إلى الجمهور. واشترى مطبعة ساهمت زوجته لأجلها في بيع حليها وأطلق عليها «المطبعة الإسلامية الجزائرية». وأول صحيفة أصدرها كانت صحيفة «المنتقد» وكان ذلك سنة ١٩٢٥، فأوقفتها فرنسا بعد صدور ١٨ عدداً من الجريدة (تماماً مثل مجلة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها **جمال الدين الأفغاني** والتي توقفت بعد صدور ١٨ عدداً منها)، بعد ذلك أصدر بدلاً منها صحيفة «الشهاب»، وأشير هنا إلى أن كل هذه الإصدارات كانت قبل تأسيس «جمعية علماء المسلمين»، وكما أنه أصدر هذه الصحف

باسمه كفرد، وجعلها « لسان الشباب الناهض». ثم بعد ذلك تحولت « الشهاب» إلى مجلة شهرية باسمه أيضا. واستمرت إلى غاية الحرب العالمية الثانية فأوقفها ثم توفي سنة ١٩٤٠.

عندما أسس سنة ١٩٣١ «جمعية علماء المسلمين» أصدر عدة جرائد؛ منها «البصائر» وقد كانت باسم الجمعية، ومنها- أيضاً- «السنة» (أوقفتها فرنسا) و«الشريعة» كذلك، و«الصراط»... فقد كان يصدر الجرائد، وعندما توقفها السلطات الفرنسية كان يعمد إلى إصدار جرائد أخرى؛ لأن القانون الفرنسي كان يسمح بإصدار جريدة باسم آخر؛ فاستغل بذلك هذا الهامش القانوني في التواصل مع الجمهور وبث أفكاره في المجتمع... وقد كان له اهتمام خاص بشريحة الشباب، كما اهتم بشكل خاص بـ«الكشافة». وله في هذا المجال نشيد يشير فيه إلى فريقين من الكشافة هما: «الرجاء والصباح» يقول فيه:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

الحياة الطيبة: كيف كانت معرفة ابن باديس بعالمه وعصره؟

كتب **ابن باديس** مقالات عديدة في النواحي الأخلاقية والاجتماعية والسياسية... وكذلك في الدفاع عن الإسلام. وما يدل على متابعته لما يجري من حوله من تطورات وأحداث أنه كان هناك مستعمر فرنسي يسمى « روبير أشيل» اتّهم الإسلام بالإرهاب كما يتهم حالياً من بعض الجهات الغربية- خاصة أمريكا- فرد عليه **ابن باديس** بسبع مقالات بعنوان: الرد على « أشيل». كما رد عليه أحد تلاميذه بقصيدة بعنوان: ما بال «أشيل» يهذي!! وكما أنه كان يرد على بعض الكتّاب المشارقة مثل «صروف» و«سلامة موسى» حينما يخطئون في حق الإسلام، ويناقشهم ويرد عليهم، حيث كان **ابن باديس** واسع الاطلاع على كل ما يستجد في العالم من أمور تستحق النظر والاهتمام. وكان مهتما بما تكتبه الصحافة الفرنسية، وكان له من يترجم له جملة من المقالات الواردة في هذه الصحافة. ويدافع عن الأمة الجزائرية بالطرق التي تيسرت له في ذلك الوقت. ومن بين الطرق التي استعملها في هذا الدفاع أنه كان يبعث ببرقيات واحتجاجات؛ كما أنه عندما منعوا تدريس اللغة العربية، كتب احتجاجات كثيرة في جريدته واتصل بالمسؤولين للدفاع عن هذه القضية.

الحياة الطيبة: كيف كانت علاقة ابن باديس بالتصوف والصوفية؟

كان شديد النقد للطرق الصوفية على ما كانت عليه في ذلك الوقت من التدهور، إذ حاول الاستعمار أن يستعملها كأداة لكسب رأي الجمهور. وابن باديس كان شديد النقد لهذا الجانب بالذات أي استعمال فرنسا للطرق الصوفية). وأشير هنا إلى أن ابن باديس عندما ظهر ليقوم بحركته كانت النواحي التربوية والثقافية في يد المتصوفة، والطرق الصوفية، فلم تكن هناك مؤسسة دينية غير هذه الطرق الصوفية؛ لذلك أراد أن يجدد التربية فقام بمواجهة هذه الطرق ليؤسس لأشياء جديدة في التعليم والتربية. والطرق الصوفية آنذاك كانت تقوم بتحفيظ القرآن لكنها لا تستعمل عقلها وتفكيرها؛ لأن الأسلوب المعروف عندها هو: اعتقد ولا تنتقد، سلم تسلم!!

وابن باديس أراد أن يأتي بمنهج جديد وأن يفكك هذه الشبكات من الطرق الصوفية الموجودة في كل مكان في البلاد، ففي القرن التاسع عشر سيطرت هذه الطرق على الأوضاع، وأصبح الناس كلهم منخرطين في الطرق الصوفية كما ينخرط الناس في زماننا بالأحزاب. ولهذا أراد أن يزلزل هذه الكيانات التي تتعاون في أغلبها مع الاستعمار وأن يجدد طرق التعليم وطرق التربية وأن يحرر الأذهان من الخرافة والوهم. وقد كان هذا التحرير من أهدافه الأساسية، فابن باديس واجه تحديين أساسيين في بلاده: تحدي الاستعمار، وتحدي «الطرق الصوفية». وقد كان يعلنها صراحة أن هذه الطرق تشكل بالنسبة له تحديا يجب إزالته، ليس هو وحده بل أصحابه أيضا. ووجّه كل طاقاته من أجل مواجهة «التحدي الصوفي»، ولرفع هذا التحدي أصدر – وجماعته– جريدة سماها «الجحيم» وأخرى سماها «عصا موسى»، وأصدروها بلون أحمر جهنمي، فكان الصراع معهم شديداً والنقاش على أشده، الأمر الذي حرّك الأفكار والناس. وبعض أصحاب ابن باديس أصدر في ذلك الوقت كتابا يتناول مظاهر الشرك عند «الطرق الصوفية»، وهو «مبارك الميلي»، وهي رسالة منشورة. فصاحبه هذا أرسله ابن باديس إلى الصحراء (الأغواط)، في الوقت الذي جعل الشيخ البشير الإبراهيمي في الغرب(تلمسان)، كما أن ابن باديس كان في الشرق(قسنطينة)، وقد كانت هذه المدن الثلاث مراكز أساسية في بث الدعوة والحديث. وأنشأ دار الحديث في تلمسان، والتي لا يزال مبناها موجوداً إلى اليوم، مع مكتبة عظيمة، وتجدر الإشارة إلى أنه افتتح هذه المدرسة المتميزة بنفسه في تلمسان مع جماعته بطبيعة الحال. هذه كانت حركة شعبية ولم تكن مفصولة عن الشعب؛ فأسس ابن باديس الجمعيات، والنوادي، وشجّع النوادي الموسيقية الأندلسية، والشعبية وما إلى ذلك؛ لأنها نوع من الثقافة، وكان هذا – في رأيه– أفضل من أن تسيطر الموسيقى الغربية

التي تحمل قيّما غربية. وكانت النتيجة بعد كل هذه الجهود أن قضى **ابن باديس** في عهده على الطرق الصوفية نهائيا، ولم يعد لها سلطة. وفي هذا الصدد نشير- أيضا- إلى أن **ابن باديس** كتب رسالة صغيرة في نقد التصوف في عهده. والملفت أنه رغم موقفه المتشدد من التصوف والطرق الصوفية وانتقاده الشديد لها بسبب عمالتها للاستعمار فقد كان **ابن باديس** يطوف بكل أنحاء البلاد ويتصل بالطرق الصوفية.

الحياة الطيبة: هل ممكن أن نعتبر ابن باديس من رواد المدرسة السلفية في المغرب العربي، والعالم الإسلامي عموما؟

السلفية بالمعنى الواسع، وليس بالمعنى الضيق الذي نراه عند بعض الناس اليوم. فالسلفية عنده هي العودة إلى الأصول الأساسية، وعرض الأشياء التي طرأت في التاريخ على القرآن الحديث. ونادى بالرجوع إلى الينابيع الأصلية مباشرة. ففي علم الكلام مثلا قال فلنترك الخيال الفلسفي والخيال الصوفي ونرجع إلى الآيات والأحاديث الصريحة ونشتق منها مباشرة. فدعا إلى الابتعاد عن هذه الأشياء التي تبعد المسلم عن القرآن أكثر مما تقربه إليه، وتفصله عنه وتغدو وسائط وحجب تحجب المسلم عن القرآن. بكلمة أخرى، يمكن أن نعتبر **ابن باديس** من مدرسة «المنار» التي أسسها **رشيد رضا**، لكنها مختلفة عن السلفية «المعاصرة»، فهي حركة واقعية عملية أكثر منها حركة ثقافية نظرية نخبوية، كما هو الشأن مع دعوة **محمد بن عبد الوهاب**.

الحياة الطيبة: كتب ابن باديس في التفسير، فكيف كانت طريقته ومنهجه في تفسير القرآن العزيز؟

أنا لم أستمع إلى تفسيره الشفوي ولا أدري عنه شيئا، ولكن بالنسبة للتفسير الذي نشره نجده يختار آيات تتناسب مع الأوضاع المستجدة، ويوظف الآيات في التفاعل مع هذه الأوضاع. ولا يسلك **ابن باديس** في تفسيره المنهج الذي يعتمده أغلب المفسرين عندما يبدؤون من الفاتحة ثم السور التي تليها إلى أن يصلوا إلى آخر سورة في الكتاب العزيز!! بل كان يختار آيات معينة من سورة معينة تواجه أوضاعا معينة في المجتمع الجزائري تحديداً. وقد وظف القرآن توظيفاً اجتماعياً، وجعل التفسير تفسيراً اجتماعياً يعالج الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية والدينية الموجودة في المجتمع الجزائري. فمثلاً خاطب مجلس النواب الجزائري- الذي وضعته فرنسا- قائلاً لهم: أنتم تنتمون إلى هذا القوم (أي الشعب الجزائري) فادفعوا الخطر عن قومكم وليس عن فرنسا! فأنتم تنوبون عن الشعب؛

فهذه نملة نبهت قومها للخطر، فلماذا أنتم لا تنبهون قومكم وتخدمونه؟! فلا تخدموا الاستعمار !! وقد وظف الآية الكريمة: ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾[سورة النمل: ١٨] وظّفها في توجيه خطابه إلى مجلس النواب الجزائري؛ فوظف «النملة» توظيفاً سياسياً. قائلاً لهم: كونوا مثل هذه النملة، بثوا الوعي في أقوامكم ودافعوا عن مصالحهم، لا تكونوا ضد أقوامكم ولا تسيروا مع المصالح الفرنسية !!

ومن جهة أخرى، استفاد **ابن باديس** من شيخه «**أحمد النخلي**» الذي أرشده إلى المنهج النقدي في التعامل مع التفاسير المختلفة... وقال له: اجعل ذهنك مصفاة لما تجده من الآراء المختلفة. وهذا الإرشاد حرر **ابن باديس** من أن يكون مقلداً وباحثاً لفظياً.

أجيال الطلبة: من الناحية العملية- الإجرائية كيف كانت طريقة ابن باديس في التفسير؟

من الناحية العملية، كان **ابن باديس** يستيقظ قبل الفجر، ويوقظ طلبته الذين قدموا من كل أنحاء الجزائر للدراسة، وكانوا يسكنون هناك في قسنطينة، ويبدأ بعد صلاة الصبح دروسه إلى قريب الظهر.. ثم يستريح قليلا ويتناول غداءه ثم يستأنف دروسه إلى ما بعد صلاة العشاء. بعد صلاة العشاء يقوم بإلقاء دروس التفسير لعامة الشعب، وكان يحضر درس التفسير أكثر من ألفي شخص !! وقد دون هذا الأمر في جريدته «الشهاب».

أجيال الطلبة: كيف كان رد فعل فرنسا؟

أذكر أن أحد المنتسبين للطرقية (من طريقة أحمد بن عليوة) والذين كان يهاجمهم ابن باديس في دروسه، جاء إلى قسنطينة وتربص له بعد أن عرف مدخله ومخرجه !! فلما عرفوا أنه يلقي درسا بعد العشاء تركوه حتى خرج من الدرس متوجها إلى داره، وأنت تعرف أن قسنطينة فيها شوارع ضيقة مثل فاس القديمة بالمغرب، فاعترض له هذا الشخص في إحدى هذه الممرات الضيقة وكان بحوزته سكين وعصا !! لكن رغم ضعف بنية **ابن باديس** الجسدية إلا أن الله عوّضه بقوة استطاع من خلالها مقاومة هذا المتربص به. ولما سمع الناس بالأصوات المرتفعة قدموا إلى عين المكان ولحقوا بهذا الشخص الذي هرب ودخل سقيفة ابن باديس !!!

ولما أمسك به الشعب قادوه إلى الجهات الأمنية المعنية بالأمر، ووجدوا عنده عصا وسكينا وسبحة !!! وتعجب الناس، كيف يمكن الجمع بين هذه الأشياء الثلاثة ؟!! وحوكم

وسجن لكن ابن باديس عفا عنه، وقال: عفوت عنه؛ لأني أعرف أنه مدفوع فقط إلى ارتكاب هذه الجريمة. ورغم أن أخ **ابن باديس**، وهو الزبير، وقد كان طبيباً، قال: نحن باسم الأسرة لن نعفو عنه !!إلا أن فرنسا في المقابل قامت بتهريب هذا الشخص إلى مصر، حيث القنصلية الفرنسية، وجعلوا له شركة نقل إلى غزة، وأنشأ طريقة صوفية هناك، بل وفي فلسطين كلها، وتزوج من غزة وله أولاد... والشيخ أحمد بن عليوة، صاحب الطريقة، صرح في تلك الفترة بأنه لم يأمره إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال! وهذا الأمر يدل على أن فرنسا كانت تسعى إلى محاصرة المد الباديسي عبر الطرق الصوفية.

وكادت هذه الحادثة أن تودي بحياة **ابن باديس**. وكتبت في «الشهاب» أشعار في تهنئة **ابن باديس** على سلامته ونجاته. حتى المغاربة كتبوا يهنئونه، كما فعلت جماعة من فاس وجماعة من الرباط...، من خلال كتابة المقالات وتدوين الأشعار.

الحياة الطيبة: هل هناك أشكال أخرى استعملتها فرنسا لمواجهة حركة ابن باديس غير محاولات اغتياله؟

من بين الأساليب التي استعملتها فرنسا محاولتهم استعمال زوجته كي يرجع عن هذه الحركة، لكنه لما علم بهذا الأمر طلق زوجته. وحاولوا أيضا أن يستعملوا أباه للضغط عليه؛ إذ دعا الوالي العام الفرنسي في الجزائر آنذاك **ابن باديس** إلى مكتبه، ولما دخل وجد أباه حاضرا هو أيضا، وقال له الوالي العام الفرنسي: إن أباك في ضائقة وورطة اقتصادية كبيرة نتيجة عجزه عن تسديد القروض التي اقترضها من البنك، -حيث إن مزارعه لم تنتج ما كان ينتظره والد **ابن باديس** من محاصيل- فإذا أردت أن ننقذه- يضيف الوالي العام- نطلب منك شيئا واحدا وهو أن تتخلى عن جمعية علماء المسلمين !! فأصيب **ابن باديس** بدهشة؛ لأنه كان يحترم أباه كثيراً، وطلب من الوالي العام الفرنسي أن يمنح له بعض الوقت للتفكير في الموضوع، ثم خرج من مكتبه وعيناه تذرفان الدموع، وكان حائراً في الاختيار بين توريط أباه في هذه المشكلة وبين جمعية علماء المسلمين، وبعد مدة قصيرة كتب إليه رسالة يعتذر فيها عن قبوله التخلي عن جمعية علماء المسلمين. فضحى بأبيه من أجل أن يستمر عمل ونشاط الجمعية. وأشير إلى أن أباه كان يحبه كثيرا، ولكنه تبرأ من ابنه- ظاهريا- بعد ذلك ليرضي فرنسا.

الحياة الطيبة: ما هو المسار العلمي الذي سلكه ابن باديس في حياته العلمية؟

درس **ابن باديس** في الزيتونة بتونس على يد الشيخ **الطاهر بن عاشور** صاحب تفسير

«التحرير والتنوير» لكن رغم تلمذته على هذا الشيخ الكبير فإن **ابن باديس** انتقده في عدة اختيارات مال إليها الشيخ التونسي. وقال **ابن باديس** عن **الطاهر بن عاشور**: هذا شيخي وتعلمت عليه وتذوقت اللغة العربية على يديه... ولكني أختلف معه في كذا وكذا من المسائل. لأن **ابن عاشور** كان قد اتهم في تلك الفترة أنه حلل مسألة التجنيس في تونس(أي أن يتجنس المسلم بالجنسية الفرنسية). لكن للأمانة العلمية والحقيقة التاريخية فإن **ابن عاشور** كان بعيدا كل البعد عن مثل ما اتهم به ونسب إليه؛ فالحزب الدستوري التونسي الذي كان يتزعمه **الحبيب بورقيبة** هو الذي افترى على **ابن عاشور** مثل هذه الأقوال، وثبت بعد ذلك أن **ابن عاشور** لم يحلل التجنيس، وأن **ابن باديس** أخطأ في هذه المسألة بسبب مجاراته لهذه الدعاية التي استهدفت العالم الزيتوني!!

ومن بين النقاط الأخرى التي ناقش فيها **ابن باديس** شيخه ابن عاشور، مسألة قراءة القرآن على الموتى؛ فابن باديس لا يقبل مثل هذا النوع من القراءة، فكتب مقالا في «الشهاب» يناقش فيه شيخه **الطاهر ابن عاشور**.

الحياة الطيبة: هل اقتصر نقد ابن باديس للطاهر بن عاشور فقط على مثل هذه القضايا الفقهية التي قد تتعدد الآراء بخصوصها أم أنه تعداها إلى قضايا أخرى؟

من بين القضايا التي تطرق إليها **ابن باديس** أثناء حديثه عن الزيتونة مسألة النظام التعليمي المتبع في هذه «الجامعة العلمية». حيث اقترح إصلاح التعليم في الزيتونة، وكتب هذا أيضا على صفحات جريدته «الشهاب». واقترح مجموعة من المواد والتخصصات الجديدة، وقال لهم: أنا تخرجت من الزيتونة ولم أقرأ تفسيرا واحدا!! وهذا عيب في رأيه؛ لأنه كيف يعقل أن تكون هناك مؤسسة إسلامية لا يدرس فيها التفسير بطريقة تمكن الطالب من أن يكون عالما!! ليس هذا فقط في الزيتونة وإنما في مدارس شرعية أخرى في عالمنا الإسلامي. فالمفروض قراءة تفسير كامل، على الأقل مثل تفسير «الجلالين»... فتتكون لدى الطالب نظرة كلية كاملة عن القرآن الكريم.

الحياة الطيبة: كيف كانت حياته الشخصية؟

كان **ابن باديس** زاهداً في الحياة الدنيا، ووهب حياته وشبابه وكهولته من أجل الإسلام والعربية. ومن أجل تكوين رجال– كما قال هو– قرآنيين. وقال: أنا أموت في سبيل العربية وفي سبيل الإسلام. هكذا وهب حياته فعلا وصدقا لا مجرد دعوى أو كلام. كان من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وكانت حركته عملية وصادقة ومخلصة. فهو رجل فريد.

الحياة الطيبة: ما هي الأمور البارزة التي استوقفتك في حياة ابن باديس؟

محاولته جمع جميع الحركات للدفاع عن الشعب الجزائري، وقال: مادام الشيوعيون يناضلون من أجل استقلال الجزائر فأنا معهم، في هذا الجانب طبعا، وليس في الجوانب المذهبية الأخرى. أي العمل في دائرة «المشترك». ففي «المؤتمر الإسلامي» سنة ١٩٣٦ الذي نظمه **ابن باديس** باسم جمعية علماء المسلمين، حضر وشارك فيه الحزب الشيوعي. أما «**مصالحي الحاج**» [الحزب الوطني] فرفض في البداية المشاركة في هذا المؤتمر بدعوى عدم مطالبة الجمعية – صراحة– باستقلال الجزائر!! لكنه في الأخير حضر، وعمد أصحاب **ابن باديس** إلى منعه من الحديث في المؤتمر لكن الشيخ قال لهم دعوه يتكلم.

الحياة الطيبة: كيف تفسرون، بعد كل ما سبق ذكره، ما يردده البعض من كون ابن باديس لم يعمل على إزالة الاحتلال والانتصار لفكرة استقلال الجزائر؟ بل إن البعض عاب عليه عزوفه عن العمل السياسي!!

ابن باديس كان أذكى من هؤلاء. **فابن باديس** كان يسعى إلى وضع الأسس لاستقلال حقيقي للجزائر. فالاستقلال هو المرحلة النهائية. فكيف تستقل وأنت لم تبث الوعي وترسخ التكوين في المجتمع؟! بمعنى أن **ابن باديس** كان يؤسس لضمان استقلال حقيقي للجزائر، وكان حكيما في ذلك، حيث لم يستعمل طريقا تجده فرنسا سبيلا لإبطال حركته، وإنما كان ذكيا، تتطور حركته ببطء، لكنها حركة عميقة؛ فاهتم بتحرير العقول أولا ثم تحرير البلاد من الاستعمار ثانيا.

أما ما يتعلق بالعمل السياسي فإن **ابن باديس** نفسه في محاضرة له في تونس سنة ١٩٣٨ أشار إلى ضرورة الجمع بين الوعي السياسي والبناء الثقافي والتربوي. وأنه لا قوام لأحدهما بدون الآخر. وقال هذا الكلام في عقر البلاد التي يخشى فيها علماء الزيتونة البوح بمثل تلك الآراء التي كان يدافع عنها **ابن باديس**.. قالها وهو في عقر دارهم!!

ومع بداية الحرب العالمية الثانية أوقف **ابن باديس** جريدته «الشهاب» كي لا تضغط عليه فرنسا من أجل تأييدها ببرقية أو مقال... وفي اجتماع لجمعية العلماء المسلمين اقترح بعضهم كتابة برقية تأييدا لفرنسا، فرفض **ابن باديس** هذا الاقتراح، إلى درجة أنه قال: لو فرنسا طلبت مني أن أقول أشهد أن لا إله إلا الله لرفضت!! وآخر عدد من هذه الجريدة (سبتمبر ١٩٣٩) تضمن مقالا سياسيا تكلم فيه **ابن باديس** على أصول الولاية السياسية، وبيّن أن الأمة هي مصدر السلطة؛ ولهذا فهو ساهم في الفكر السياسي بمقالاته هذه.

وأذكر بهذا الصدد واقعة تدل على الخطورة السياسية التي كان يشكلها **ابن باديس** للاستعمار؛ فعندما توفي أحد المصلحين المغاربة، وأعتقد أنه الشيخ «**شعيب الدكالي**»، أراد **ابن باديس** أن يذهب للمشاركة في جنازته وتأبينه فمنعته فرنسا من الدخول إلى المغرب. وكانت هناك كتابات في تلك الفترة تشير إلى أن **ابن باديس** أخطر من كل الأحزاب السياسية الأخرى!! لأنه يقوم بأعمال مدمرة لفرنسا من الداخل.

وأذكر واقعة أخرى، في المؤتمر الإسلامي(١٩٣٦) – الذي أشرنا إليه سابقاً– الذي انعقد في الجزائر وجمع فيه كل الأحزاب السياسية؛ ومن هنا تسميته بالمؤتمر الإسلامي إذ أرادت فرنسا أن تدمر هذا المؤتمر فأوعزت إلى واحد من صعاليكها فقتل مفتي الجزائر آنذاك الشيخ «**كحول بن دالي**»، وكان موظفا عند فرنسا، واتهموا الشيخ «**الطيب العقبي**» مع «**عباس التركي**»، وكانا أعضاء في جمعية علماء المسلمين، بأنهما قتلا مفتي الجزائر!! وكان ذلك بعد المؤتمر مباشرة. ثم حوكم «**العقبي**»، وكتب **ابن باديس** في الصحافة على الظلم والاستبداد... وظهر بعد مدة من المحاكمة أنه بريء. والقاتل الحقيقي انكشف أمره في ما بعد؛ إذ إنه كان لا يزال على قيد الحياة، فاعترف في السنين الأخيرة بضلوعه في قتل الشيخ «كحول» مفتي الجزائر!

فكانت هذه الواقعة مؤامرة لإفشال هذا المؤتمر والآثار المترتبة عنه؛ لأنه كان مؤتمراً قوياً، والشعب كله كان معلقاً –ومتعلقاً– بهذا المؤتمر الذي أحيا الشعور بالانتماء لدى الجزائريين، فأرادوا أن يجهضوه. وكان أحد السياسيين المشاركين في المؤتمر اسمه «**ابن جلول**» عندما سمع باتهام فرنسا للجمعية بقتل مفتي الجزائر كتب مقالا وقال: أنا أتبرأ من هؤلاء الذين لطخت أيديهم بالدم، وكان يقصد جمعية علماء المسلمين. وكانت النتيجة انقسام المؤتمر!! لأن فرنسا خافت من هذا المؤتمر إن استمر أن تكون له آثار شعبية كبيرة.

ومن بين الدلائل الجلية الدالة على حضور البعد السياسي في حركته، رأيه في الخلافة العثمانية عندما أزيلت؛ حيث رأى أن بقاءها وإزالتها سيان!! لأنه كان يدعو إلى تكوين جماعة مسلمة تكون مستقلة عن الحكام. ولما انعقد– في تلك الفترة– مؤتمر في القاهرة، وكان شيوخ الأزهر يميلون إلى إسناد الخلافة عندما سقطت في استانبول إلى الملك فاروق، كتب **ابن باديس** رسالة إلى هذا المؤتمر، وعندما لم يجيبوه قال: ... وسيعلم فضيلته في المستقبل أن رأيي هو الصواب. فكان **ابن باديس** ينادي بتكوين – كما قلنا– جماعة مسلمة تكون مستقلة عن الحكومات وتكون هي القيادة العليا للعالم الإسلامي. كما

فعل **جمال الدين الأفغاني** عندما أسس جمعية سماها « العروة الوثقى»، وما مجلة « العروة الوثقى» إلا لسان حال هذه الجمعية، وبالمناسبة كان من أعضاء هذه الجمعية الأمير عبد القادر الجزائري.

كلمة أخيرة عن ابن باديس

الشيخ **عبد الحميد ابن باديس** كان له أعمق الأثر من الناحية الثقافية وكذلك من ناحية الحفاظ على رسالة الإسلام واللغة العربية، وكان أثره في كل هذه الجوانب أكثر من أي حزب يدعو إلى الاستقلال بشكل مباشر، لكنه- أي هذا الحزب- لا يبني العقول ويربي الناس، حتى إذا جاء الاستقلال فشلوا في تنظيم المجتمع وتوجيهه الوجهة الصحيحة !! أما **ابن باديس**، فهو من قاد النهضة الثقافية الحقيقية في البلاد.

ثم إن ابن باديس كانت نظرته شاملة، فكان رأيه أنه لا يمكن الفصل في الإسلام بين الجوانب التربوية والثقافية وبين الجوانب السياسية. وقد أكد هذا الأمر بجلاء في صحافته.

وأختم بمسألة مهمة أهّلت **ابن باديس** ليكون في مستوى تطلعات حركته الإصلاحية، وهي عدم تقيده بوظيفة عند السلطات الفرنسية. وقد سلك هذا المسلك بناء على نصيحة شيخه «**حمدان لونيسي**»، عندما التقاه بالمدينة المنورة سنة ١٩١٦، والذي قال له: إياك أن تقبل الوظيفة عند الحكومة الفرنسية !! لأن عدم التقيد سيحرره من الناحية الأخلاقية والعملية. ولهذا كانت **لابن باديس** مواقف مهمة مبنية على استقلاله الخلقي واستقلاله العملي، فلم تكن لأي جهة سياسية سلطة عليه.